المقدمة

يُعَدُّ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) من أشهر التفاسير في فهم كتاب الله تعالى، وقد وجدته مثالاً عظيماً للعلاقة الوثيقة بين التفسير وعلوم العربية ولا سيما ما يتعلق منها باللغة والنحو، فعقدت العزم على أن أدرس ما فيه من جهد يتصل بهٰذين الأمرين، فكان (أبو عبدالله القرطبي وجهوده في النحو واللغة في كتابه: الجامع لأحكام القرآن) هو الموضوع الذي قررت الكتابة فيه فكان هٰذا الكتاب.

وقد بنيت هٰذا الكتابَ على تمهيدٍ، وستة فصول، وخاتمةٍ بعد أنْ قدَّمت له بهٰذه المقدمة الموجزة التي بَيَّنت فيها سبب اختياري الموضوع ومنهجه ومصادره.

وقد تحدثت في التمهيد عن العلاقة بين التفسير وعلمي اللغة والنحو، فبيَّنت بإيجاز مقدار اهتمام علماء التفسير باللغة والنحو، وذكرت أمثلة من التفاسير التي سبقت القرطبي وكان لها عناية خاصة بهٰذا الجانب، وبيَّنت أيضاً مقدار اهتمام علماء العربية بدراسة القرآن الكريم من حيث معانيه وإعرابه وشرح غريبه والاستدلال لقراءاته، ووضعت بين يدي القارىء أمثلة لهٰذا الاهتمام فسردت مجموعة من المؤلفات التي اختصت بدراسة القرآن دراسة نحوية أو لغوية، مثل كتب معاني القرآن وإعرابه، وكتب الاحتجاج لقراءاته.

أما الفصل الأوَّل فقد تحدثت فيه عن القرطبي: حياته وتفسيره

ونشأته ونسبه وهجرته من الأندلس إلى مصر، وثقافته وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته، وأنهيت الفصل الأول بدراسة موسعة لتفسيره، تناولت فيه مادته ومنهجه وطرقه في التفسير.

أما الفصل الثاني فقد عقدته لدراسة موارده النحوية واللغوية في تفسيره، فتناولت فيه تلك الموارد سواء أكانت كتباً أم أعلاماً، وتحدثت فيه أيضاً عن طرق نقله ومقدار دقته في النقل، وموقفه مما يَنقل.

وأما الفصل الثالث فقد خصَّصته لدراسة جهوده النحوية في التفسير، فتناولت فيه آراءه ولا سيما ما يتصل منها بمسائل الخلاف، وموقفه من البصريين والكوفيين في المسائل التي عرض لها، وخاصة مسائل الإعراب، ثم تحدثت عن مصطلحه النحوي، فأوردت جملة كبيرة من مصطلحاته النحوية، وقد قمت بتصنيف المصطلحات التي استعملها إلى ثلاثة أنواع: مصطلحات مشتركة استعملها النحاة كافة، ومصطلحات بصرية، ومصطلحات كوفية، مع الإشارة إلى موضع ورود المصطلح في كتاب سيبويه إذا كان بصرياً، وورود في معاني القرآن للفراء إذا كان كوفياً، باعتبار هٰذين الكتابين أقدم كتب النحو الأصيلة التي يُعَوَّل عليها في دراسة المصطلح النحوي الخاص بالبصريين والكوفيين.

وتكلمت في الفصل الرابع على جهوده اللغوية التي تمثلت في نمطين من المباحث: النمط الأول يتصل بدلالة الألفاظ، فدرست فيه ما ورد في تفسيره من إشارات تتعلق بالمشترك اللفظي، والتضاد، والترادف، والحقيقة والمجاز، والنمط الثاني يتصل بمباحث غير دلالية خصصته لدراسة جهوده في الاشتقاق، والنحت، والتعريب، وما ورد فيه من دراسة تتصل بلغات القبائل العربية.

أما الفصل الخامس فقد خصصته لدراسة جهوده في القراءات القرآنية، وذلك لما للقراءات من علاقة وثيقة بالدرس النحوي واللغوي، ولا سيما ما يتصل منها بالاحتجاج. وقد عرضت فيه لمقدار اعتداده بالقراءات ودفاعه عنها، وبينت أنواع القراءات التي احتج بها.

وفي الفصل السادس تحدثت عن قيمة تفسير القرطبي وأثره من حيث ما فيه من جهود تتصل باللغة والنحو، فبينت مكانته، وآراء القدامى والمحدثين فيه، والأثر الذي تركه في كتب التفسير واللغة والنحو التي جاءت بعده من لغة أو نحو، ثم أعقبت هٰذه الفصول بخاتمة تحدثت فيها عن نتائج البحث.

أما المصادر التي عولت عليها في كتابة هٰذا البحث، فهي كثيرة، وكان في مقدمتها كتاب «الجامع لأحكام القرآن» الذي هو موضوع الكتاب، وتأتي بعده كتب معاني القرآن وإعرابه وقراءاته، مثل: «معاني القرآن» للفراء، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة، و«معاني القرآن» للأخفش، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجّاج، و«السبعة في القراءآت» لابن مجاهد، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءآت» لابن جني، وقد اعتمدت أيضاً على كتب التفسير، وكان من أهمها «تفسير الطبري»، و«تفسير الكشاف»، و«تفسير ابن عطية» (المحرر الوجيز)، و«البحر المحيط» لأبي حيان.

أما كتب النحو، فقد أفدت منها إفادة كثيرة، وكان كل من «كتاب سيبويه»، و«المقتضب» للمبرد، و«شرح المفصل» لابن يعيش، و«مغني اللبيب» لابن هشام، و«همع الهوامع» للسيوطي في مقدمة تلك الكتب النحوية.

واعتمدت كذٰلك على معاجم اللغة ولا سيما «العين» للخليل،

و«تهذيب اللغة» للأزهري و«الصحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور»، و«تاج العروس» للزبيدي.

وكان لا بد من الرجوع إلى كتب طبقات الرجال وتراجمهم، فكان من أهم تلك الكتب كل من: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري، و«بغية الوعاة» للسيوطي.

واستعنت بكتب حديثة وثيقة الصلة بالموضوع مثل: «التفسير والمفسرون» للشيخ الذهبي، و«القرطبي ومنهجه في التفسير» للدكتور القصبي محمود زلط، و«الطبري النحوي» للدكتوز زكي الآلوسي، و«الترادف في اللغة العربية» لحاكم لعيبي، و«القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» للدكتور عبدالعال سالم مكرم، و«أثر القرآن والقراءآت في النحو العربي» للدكتور محمد سمير نجيب اللبدي.

هٰذه أهم المصادر التي رجعت إليها، وقد ضم ثبت المصادر جلَّ المصادر التي رجعت إليها، واقتصرت فيه على المصادر التي ورد ذكرها في هوامش الكتاب، وهناك مصادر كثيرة أخرى أفدت منها ولكن لم يرد لها ذكر في هوامش الكتاب فلم أدرجها في الثبت.

والله أسأل أن يسدد خطاي لما فيه خير أمتنا أمة القرآن، وهو حسبي ومنه أستمد العون، وعليه توكلت وإليه القصد والمآب.

والحمد لله رب العالمين

الدكتور

عبدالقادر رحيم حديي الهيتي

تمهيد

العلاقة بين التفسير وعلمي اللغة والنحو

لقد عول المفسرون على علمي اللغة والنحو فاتخذوا منهما أداةً لتوضيح آيات القرآن الكريم، وقد عدّ علماء الشريعة ـ اللغة والنحو ـ من آلات صناعتهم، لأنَّ اللغة هي وعاء الفكر[1] والأداة التي يُعبَّر بها عن جميع العلوم التي تتصل بحياة الإنسان الدنيوية والأخروية.

ومن جهة أخرى نجد أنَّ اللغويين والنحاة قد اعتمدوا على القرآن الكريم، لأنَّه يمثِّل العربية في أحسن صورها وأنقاها وأفصحها من حيث المفردات والتراكيب[2].

وكان علم التفسير أكثرَ حظاً من غيره من العلوم الأخرى فيما أفاده علماء الشريعة من علمي النحو واللغة، وكان ارتباطه بهما أكثر من ارتباط غيره من علوم الشريعة بهما.

ولقد نشأت العلاقة بين هٰذين العلمين من جهة، وبين علم التفسير من جهة أخرى منذ أن احتيج إلى توضيح آيات القرآن الكريم وصيانته من اللحن[3].

---

(١) «علم اللغة العام»/١٣٢.

(٢) «أثر القرآن والقراءات في النحو العربي» /٣١.

(٣) «أخبار النحويين البصريين»/١٢.

وينظر: «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» /٤٥.

من هنا شدَّد العلماء على أهمية هٰذين العلمين لكل مَنْ أراد تفسير القرآن الكريم.

فقد ذكر القرطبي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ لمَّا رأى الناس يلحَنون في القرآن الكريم ـ أمرَ أن لا يُقرِئَ الناسَ القرآنَ إلَّا عالمٌ باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي بوضع النحو[1]، وأجمع العلماء على أن إحاطة المفسِّر باللغة وآدابها شرطٌ أساسيٌّ من الشروط التي يجب توفرها فيه[2]. وقد ذكر السيوطي ـ وهو ممن اهتم بعلوم القرآن ـ جملةَ علومٍ يجب على المفسر أن يتقنها، حيث قال: «إنها خمسة عشر علماً ـ أحدها: اللغة، لأن فيها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، الثاني: النحو، لأنَّ المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بدّ من اعتباره»[3]. ثم مضى في تعداد تلك العلوم.

والذي يهمنا بيانه هنا ـ أنه قد جعل معرفة علمي اللغة والنحوِ أوَّل تلك العلوم وثانيها.

وإذا كان الرعيل الأول من المفسرين ـ وهم جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، ومن جاء بعدهم بقليل ـ غير محتاجين في تفسيرهم الآيات القرآنية إلى معرفة علم النحو، لكون فصاحتهم غير مشوبة

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» ١/٢٤، وجاء في الهامش:
لعل أمرَ أبي الأسود الدؤلي قد تكرر من عمر وعلي رضي الله عنهما.
ينظر «أخبار النحويين البصريين»/١٢.

(٢) «شرح المفصل» ١/١١.
وينظر: «الإتقان في علوم القرآن» ٢/١٨٠.

(٣) «الإتقان في علوم القرآن» ٢/١٨٠.

باللحن، ولكونهم يفهمون القرآن الكريم دونما حاجة إلى معرفة القواعد التي تبين مواقع الألفاظ الإعرابية في الآيات القرآنية، فإنَّ المفسرين الذين جاؤوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة علم النحو وأصوله بعدما انحرفت الألسن انحرافاً أدَّى إلى ضعف القدرة على فهم القرآن الكريم[1]، وأصبح جمهور الناس لا يستطيعون إدراك معنى الآية أو بعضها لجهلهم بتركيبها اللغوي أو النحوي، فبسببٍ من ذٰلك أخذت العلاقة بين التفسير وهٰذين العلمين تزداد ازدياداً ملموساً، وكلما ازداد جهل الناس بالعربية وابتعدوا عن تعرف أساليب العرب في كلامها، ازدادت الحاجة إلى بيان معاني القرآن الكريم ومراميه وإشاراته[2].

عند ذٰلك لم يكن أمام المفسرين بُدٌّ من اعتماد قواعد العربية لتوضيح معاني الآيات القرآنية، فأصبحت معرفة اللغة والنحو من ألزم العلوم التي يجب على المفسر أن يُلِمَّ بها حتى يَسُوغَ له أن يقول في كتاب الله تعالى ما ينور الله به بصيرته[3].

فاللغة آلة من آلات البحث، والقرآن الكريم كتاب عربي مبين ضم في ما ضم بين دفتيه أحكام الشريعة الإسلامية الغرّاء، فهو أهم أدلتها في الأصول والفروع. وفهم الكتاب مرتبط باللغة؛ لأنه ألفاظ وتراكيب، وكلٌّ منها بحاجة إلى توضيحٍ وبيان.

وللنحو علاقة وثيقة بالتفسير، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر: فللقرآن وبالقرآن وضع النحو وقعدت قواعده[4]، وبالنحو كذٰلك اتضحت

---

(١) «التفسير والمفسرون» ١/٣٤، و«النحو وكتب التفسير» ١/١١٧.

(٢) «التفسير والمفسرون» ١/٣٤-٣٥.

(٣) «الإتقان في علوم القرآن» ٢/١٨٠.

(٤) «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية»/٤٥.

معاني القرآن الكريم وبيّنت أحكامه، وتميّزت إشاراته[1].

ولقد تمثلت قوة العلاقة بين التفسير وهٰذين العِلْمين في مظهرين هما:

١ ـ اهتمام المفسرين بالعربية ومسائلها.

٢ ـ اهتمام اللغويين والنحويين بالقرآن الكريم من حيث إعرابُهُ وبيان مدلولاته.

١ ـ اهتمام المفسرين بالعربية ومسائلها:

لقد اهتم المفسرون بمسائل العربية اهتماماً ظاهراً[2] يُنْبِئُ عن قوة العلاقة بين التفسير وعلوم العربية وخاصة ما يتصل منها باللغة أو النحو[3]، ولهٰذا جاءت تفاسيرهم زاخرة بمسائل العربية في مختلف فنونها[4].

والناظر في التفاسير التي سبقت القرطبي يجد أمثلةً كثيرةً على هٰذا، أذكر منها هٰذه التفاسير:ـ

١ ـ تفسير ابن عباس (ت:٦٨هـ)[5].

٢ ـ تفسير مجاهد (ت:١٠٤هـ)[6].

وينظر: «النحو وكتب التفسير» ١/٣٥.

(١) «أثر القرآن والقراءات في النحو العربي» /٢٧٨.

(٢) «التفسير والمفسرون» ١/٥٨.

(٣) «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» /٢٢٠.

(٤) «أثر القرآن والقراءات في النحو العربي» /٢٧٨.

(٥) «كشف الظنون» ١/٤٣٨، و«التفسير والمفسرون» ١/٦٩، ٧٠.

(٦) المصدران السابقان ١/٤٥٨، ١/١٠٤ بالترتيب نفسه.

٣ ـ تفسير مقاتل (ت: ١٥٠هـ)[١].

٤ ـ جامع البيان للطبري (ت: ٣١٠هـ)[٢].

٥ ـ الكشف والبيان للثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)[٣].

٦ ـ الكشاف للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)[٤].

٧ ـ المحرر الوجيز لابن عطية (ت: ٥٤١هـ)[٥].

٢ ـ اهتمام اللغويين والنحاة بالقرآن الكريم:

كان بيان معاني الألفاظ اللغوية قضية بارزة في عمل اللغويين، وكان الإعراب مظهراً قوياً من مظاهر عمل النحاة، وهٰذان الجانبان يمثلان القيمة الأصلية لهٰذين العلمين، وبسببهما قامت جُلُّ الدراسات النحوية واللغوية، وكان لهٰذين العلمين أكبر الأثر في تفسير القرآن، لأنهما يتصلان بالمعاني الوضعية للمفردات وبوظيفتها في التراكيب، وعلى هٰذين الأساسين يعتمد في فهم النصوص العربية التي يأتي القرآن في مقدمتها.

ومن هنا نجد أن النحاة واللغويين اهتموا ببيان معاني مفردات القرآن وإعرابها والكشف عن أوجه القراءات المختلفة وتوجيهها توجيهاً نحوياً ولغوياً على وفق لغات العرب وسننها في الكلام[٦]. وقد أثرى

---

(١) «كشف الظنون» ١/٤٥٩.

(٢) المصدر نفسه ١/٤٣٧، و«التفسير والمفسرون» ١/٢١٨.

(٣) «وفيات الأعيان» ١/٣٣، و«كشف الظنون» ٢/١٤٩٦.

(٤) «شذرات الذهب» ٤/١١٨، و«كشف الظنون» ٢/١٤٧٥.

(٥) «طبقات المفسرين» للداودي ١/٢٦٠، و«كشف الظنون» ٢/١٦١٣.

(٦) «النحو وكتب التفسير» ١/١٠٧، ١٤٧.

هٰذا الاتجاه المكتبة القرآنية وأمدّها بتراث ضخمٍ من المؤلفات التي عنيت بالجانب النحوي واللغوي لهٰذا الكتاب العظيم.

وسأضع بين يدي القارىء أمثلةً مختارةً من تلكم المصنفات التي سبقت القرطبي أو كانت قريبةً من عصره، واختصّت بالجانب النحوي أو اللغوي، ولم تنصرف للأحكام الشرعية، أو الأحكام المتصلة بالعقيدة إلا لماماً، وهي:-

١ ـ معاني القرآن، للرؤاسي (ت: ١٨٧هـ)[١].

٢ ـ معاني القرآن، للكسائي (ت: ١٨٩هـ)[٢].

٣ ـ معاني القرآن، لقطرب (ت: ٢٠٦هـ)[٣].

٤ ـ معاني القرآن، للفراء (ت: ٢٠٧هـ)[٤].

٥ ـ مجاز القرآن، لأبي عبيدة (ت: ٢٠٩هـ)[٥].

٦ ـ معاني القرآن، للأخفش (ت: ٢١٥هـ)[٦].

٧ ـ معاني القرآن، لثعلب (ت: ٢٩١هـ)[٧].

---

(١) «الفهرست» /١٦٤، و«كشف الظنون» ٢/١٧٣٠.

(٢) «بغية الوعاة» ٢/٦٤، و«كشف الظنون» ٢/١٧٣٠.

(٣) «الفهرست» لابن النديم /٣٤، و«كشف الظنون» ٢/١٧٣٠.

(٤) «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» ٢/٣٣٣، و«كشف الظنون» ٢/١٧٣٠.

(٥) «بغية الوعاة» ٢/٢٩٥.

(٦) «كشف الظنون» ٢/١٧٣٠.

(٧) المصدر نفسه ٢/١٧٣٠.

obeikandl.com

٨ ـ معاني القرآن وإعرابه، للزجّاج (ت: ٣١١هـ)[١].

٩ ـ السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ت: ٣٢٤هـ)[٢].

١٠ ـ معاني القرآن، للنحاس (ت: ٣٣٨هـ)[٣].

١١ ـ إعراب القرآن، للنحاس (ت: ٣٣٨هـ)[٤].

١٢ ـ الحجة في القراءات، لابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ)[٥].

١٣ ـ الحجة في علل القراءات السبع، لأبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ)[٦].

١٤ ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات، لابن جني (ت: ٤٩٢هـ)[٧].

١٥ ـ الكشف عن وجوه القراءات، لمكي القيسي (ت: ٤٣٧هـ)[٨].

١٦ ـ مشكل إعراب القرآن، لمكي القيسي (ت: ٤٣٧هـ)[٩].

١٧ ـ التيسير في القراءات السبع، للداني (ت: ٤٤٤هـ)[١٠].

١٨ ـ الكشف في نكت المعاني والإعراب لجامع العلوم

---

(١) «بغية الوعاة» ١/٤١٢.

(٢) «كشف الظنون» ١/٦٣١.

(٣) و(٤) «إنباه الرواة» ١/١٦١.

(٥) «بغية الوعاة» ١/٥٣٠.

(٦) المصدر نفسه ١/٤٩٧.

(٧) «كشف الظنون» ٢/١٦١٢.

(٨) و(٩) «بغية الوعاة» ٢/٢٩٨.

(١٠) «كشف الظنون» ١/٥٢٠.

(ت: ٥٤٣هـ)[1].

١٩ ـ البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات ابن الأنباري (ت: ٥٧٧هـ)[2].

٢٠ ـ التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (ت: ٦١٦هـ)[3].

ولعلي في هٰذا التمهيد الموجز قد استطعت أن أبين العلاقة الوثيقة بين علم التفسير وعلمي النحو واللغة، لأخلص بعد ذٰلك إلى دراسة تفسير القرطبي متناولاً ما فيه من جهود في اللغة والنحو جعلت منه مرجعاً من مراجع الدرس النحوي واللغوي.

---

(١) «إنباه الرواة» ٢/٣٤٧.

(٢) «بغية الوعاة» ٢/٨٧.

(٣) «وفيات الأعيان» ١/٢٦٦.

obeikandl.com